مدخل نقدي بيئي للنص السردي القصير عند الأستاذ: أحمد نصر

د. أحمد محمد الشلابي[1]

ملخص:

تهدف هذه الورقة تحليلَ أنموذجين من القصص القصيرة للكاتب الليبي: أحمد نصر، من مجموعته الأولى ذات العنوان: "وتبعثرت النجوم"، وتتخذ من الصحراء مسرحا لأحداثهما، ويتوسل هذا التحليل السهل بالمنهج النقدي البيئي الذي لا يزال في طور التبلور حتى عند من أوجده من نقاد الغرب.

تمهيد:

يقتضي البحث العلمي تقديم تمهيد يعرِّف بمصطلحات البحث وتقديمها للمتلقي: فنعرض للبيئة الصحراوية الليبية، وأدب الصحراء، وبحدود القصص قيد الدراسة، وبالكاتب، وحظ الصحراء في أدبه، ثم بالمدخل البيئي لدراسة الأدب في النقاط التالية:

1- تشكل الصحراء مسافة تقارب التسعين في المئة من مساحة ليبيا (الحجاجي:1989: 18-31)، ولا تصلح أراضي دولتنا للزراعة إلا بواقع (7%) وما هو مزروع فعلا لا يتعدى: 1% فقط، في الشريط الساحلي الممتد لما يقارب 1900 كيلو متر طولا، والعيش في الصحراء وقطنها والمرور منها من المألوفات عند كل الليبيين، وليست هناك دولة أخرى تحتل الصحراء الكبرى من مساحتها ما تحتله من ليبيا (الحجاجي:1989:نفسه)، وتتدرج الصحراء في جفافها من الرطبة حتى القاحلة التي تماثل الربع الخالي في صحراء الجزيرة العربية، ويسمي سكان جزء الصحراء القريب من الساحل بـ "البر".

وقد احتلت الصحراء مساحة كبيرة في الأدبين الشعبي والفصيح، ولكن حتى وقت قريب لم يكن غيرُ القلائل، ومنهم إبراهيم الكوني من يجعل الصحراء مسرحا لأحداث روايته وقصصه القصيرة. (الشلابي:

[1] - كلية الآداب جامعة مصراتة.

205:2006)، وأدب الصحراء هنا هو ذلك الأدب الذي يتخذ من الصحراء مكاناً، وبيئة لأحداثه، وليس بالضرورة أن يكون مبدعُه ممن سكن الصحراء.

2- وتقصر هذه الورقة نفسها على تناول قصتين اتخذتا من الصحراء فضاء ومكانا لهما، وتقعان ضمن "وتبعثرت النجوم"، أول مجموعة صدرت لكاتبهما، وهما قصة "الماء" وقصة: "وكانت ليلة"، حيث مثَّل الماء موثقاً حاضرا في كلا العملين السرديين القصيرين، وذلك بالسعي إلى الكشف عن المحتوى البيئي فيهما.

3- ويعد الكاتب من الأوائل القليلين الذين كتبوا عن الصحراء في مجموعاته القصصية الثلاث: وتبعثرت النجوم: 1970م، وشبح النهاية: 1972م، والحساب والجفاف: 1987م، ثم في كشكول خاص: 2015م، وكان قد جعلها بيئة لأحداث روايته الثانية: "السهل" الصادرة عام: 1991م.

وإذا ما عرفنا أن: أحمد نصر يعد كاتباً مدينيا في الأساس منذ: (الوميض) إلى (عاتكة)، آخر رواياته، ومرورا بكل أدبه السردي القصير، وسيرته الذاتية ذات الأجزاء الأربعة: (المراحل)؛ لتبين لنا أن المسافة التي خصصها للصحراء تزيد عن اهتمام أي كاتب آخر من جيله من: عبد الله القويري إلى المصراتي إلى خليفة حسين مصطفى النطاح إلى أحمد الفقيه، مع أن هذا الأخير ابنٌ للبيئة الصحراوية.

وهذا مؤشر على التنوع في المكان السردي لدى أحمد نصر، غير أن القاص لايكتب عن الصحراء بوصفها مَعْرِضًا للأيديولوجيا العرقية – كما يفعل الكوني –، ولا بوصفها مكانا تقليديا كما يكتب عبد الرحمن منيف السعودي، إنما هو يعيش الصحراء في بيئته، وأنه كثيراً ما كان يتردد عليها في طفولته وشبابه، ومن الواضح أنه يكتب عنها بوصفها بيئةً تمثل عناصر حية وصامتة تتعاون عناصرها فيما بينها وتتعاطف، ونفترض هنا أنه يرصد هذه الشبكة من العلاقات البيئية، ويسعى إلى التنبيه عليها، ولفت انتباهنا إليها.

4- وتتميز المعالجة المبكرة للكاتب لموضوع الصحراء في "وتبعثرت النجوم" بنكهة خاصة، لسببين على الأقل: أولهما: أن حضور البيئة الصحراوية ليست فقط حضوراً فيزيائيا أو هندسيا، بل إنه جاء عن وعيٍ بالمضمون البيئي والكتابة، وهي ليست مسرحا للأحداث جاء مصادفةً، بل يبدو مختاراً عن عمد، وتتوافر فيه القصدية إلى حد كبير، أما ثاني السببين فهو أن: أحمد نصر يملك نوعا خاصا من الكتابة، فهو وصَّافٌ ماهرٌ قل من يتعامل تعامله مع اللغة، فهذه الثيمة إذاً ليست رصداً اعتيادياً أو عشوائياً، إنما هي تتمتع بذوق خاص، وقد كُتبت قصصُ المجموعة الأولى خلال سنوات الستينيات حين لم يكن قد مضى على ما يسمى "الاستقلال" وقت طويل، وحين بدأت الدولة الجديدة بعد أن فقدت هذا الاستقلال منذ: 1836م.

كذلك، يجدر بنا هنا أن نناقش حدود العلاقة بين الكاتب والبيئة الصحراوية، فإلى أي حدٍّ التفت أحمد نصر إلى الصحراء؟ تشير الإحصائيات إلى أن سكان ليبيا يتركزون في الساحل والمدن، وأن أقل من: 10 %

فقط هم من يسكن خارج الشريط الساحلي؛ أي: الصحراء وواحاتها الصغيرة المتناثرة، (الحجاجي، 1989): (137 -141) أي: بمعنى أن: 90 % من السكان يقطنون مساحة: 10% من مساحة البلاد، وأن: 10% منهم يقطنون مساحة: 90 % (نفسه)، وهذا فيما يبدو عدل الطبيعة في التوزيع الإنساني، وهو يعكس الحاجة إلى توافر المأكل والمشرب، لكن تنبغي الإشارة إلى أن معظم سكان القرى والأرياف والواحات الصحراوية قد نزحوا عنها واستوطنوا المدن على حساب الصحراء.

وبالعودة إلى سؤالنا عن القدر الذي احتلت فيه الصحراء مساحتها من أدب أحمد نصر القصصي، نقول: إن اهتمام الكاتب بالبيئة الصحراوية ملحوظٌ في جميع إنتاجه السردي القصير، فلا تخلو مجموعة من حضور هذه البيئة، هذا إضافة إلى روايته (السهل).

5- وتعد البيئة الصحراوية مفعمة بالأدب بمختلف أنواعه، وإذا كانت ليبيا مطمورة في لفائف التردد -كما يقول الناقد كامل عراب- (عراب: 2008: 61) فإن الصحراء الليبية - كما القرية - غنية إلى حدِّ التخمة بالقصص الفطرية الشعبية، وفي: " ليبيا صحراء غنية بالقصص والروايات والأساطير"، يواصل الناقد ذاته (عراب: نفسه).

ونحن هنا أمام نوعين من ثيمات العلاقة بين الإنسان والصحراء، هما: موضوع (القروي/ "الأعرابي والصحراء")، وموضوع علاقة (الصحراوي/ "الراعي والصحراء")، يرصدهما أحمد نصر في قصتين قصيرتين نحللهما في هذه الورقة بوصفهما أنموذجين وهما: قصة (الماء)، وقصة (وكانت ليلة)، في هاتين القصتين يصور الكاتب العلاقة بين الإنسان والحيوان والطبيعة والصحراء، ويتعرض فيهما لرصد التفاعل العطوف بين نوعين من الحيوانات: النوع الأول: الأغنام والنوع الثاني: الجمل، وفي كلتا القصتين يشارك الحيوانُ الإنسانَ البطولة (قطيع الغنم، والشاة الأم، والجملان الصبوران)، وتظهر العلاقة الحميمة بين الإنسان والحيوان بوصفهما عنصرين لبيئة واحدة، في القصة الأولى: (الماء) يخاطر الإنسان بحياته، لينقذ نفسه وينقذ الحيوان معه.

أما في القصة الثانية فالحيوان هو الذي ينقذ الإنسان، فصبر الجمل ووقوفه سداً ومتراساً في: (وكانت ليلة) هو ما حمى الأعرابي ورفيقه من التجمد والموت برداً، وأنقذهما من العاصفة الهوجاء المسعورة.

ويتم تصوير هذه العلاقة بلغة خاصة معهودة لدى القاص، فيرسم: أحمد نصر، في جميع أعماله السردية، بأسلوب متميز لوحاتٍ طبيعيةً بيانيةً من الأمكنة المختلفة التي يتخذها مسرحا لأحداث سردياته، يتضح ذلك بمجرد قراءة أيٍّ منها؛ فهو وصاف ماهر، وهو هنا يعرض بالوصف للبيئة صحراوية على نحوٍ يتجاوز المعتادِ، حيث يرصد بشاعرية ملحوظة، على سبيل المثال منظر الغروب والشمس والمساء، وبلغة خاصة" "**الشمس رغيف ذهبي ملتهب، ينشر الجوع في خريف الصحراء، ويكاد ينطوي خلف الهضاب النائية، وصمت**

يستقبل الغروب، وخيمة خاوية تخطاها الصيف المحرق، وثمانون يوما من الخريف، ولم تَرْثِ السماء لحالها بدمعة" (نصر: 2015: 95).

6-أما النقد البيئي على حد تعبير مؤسسيه فهو: "دراسة العلاقة بين الأدب والوجود البيئي (...) ويتبنى مقاربةً تركز على البيئة في الدراسات الأدبية "(Goltfelty and Fromm, 1996 : xviii). ويذهب ماكافرلين الناقد الأدبي البريطاني ذي التوجه البيئي إلى أن الأدب – وفقا للقراءة البيئية للنصوص- هو الأدب الذي يُظْهِرُ أن مصير كلٍّ من الإنسانية والطبيعة غيرُ قابل للانفصال: (Carter,2007:138).

وتسعى هذه الورقة إلى مناقشة شاعرية الصحراء عند أحمد نصر من وجهة نظر النقد البيئي، الذي يسعى كذلك إلى: "الكشف عن الدلالات المتعددة الجوانب للطبيعة والبيئة"، (Habib, 2011: 279)، وذلك من خلال: ثيمتي: **الماء، وكانت ليلة"**.

أولاً – الثيمة الصحراوية (الماء):

يقدم لنا الكاتب قصةَ **الماء** بالاستهلال الآتي: "**ما زالت الشمسُ تسلط أشعة محرقة يستقبلها وجه الصحراء الكالح، استقبال المغلوب على أمره، اختفت دويبات الأرض في جحورها، وصمت في غيبوبة القيلولة..، لا أحد يهمس،...، لا أحد يتحرك سوى الأعواد الباقية من ضلوع الربيع**"، (نصر: 1970: 15). وتروي الحكاية الظاهرية مأساةَ راعٍ وقطيعه، تقطعت بهم السبل في الصحراء دون الماء، في منطقة "**أبوهادي**" قرب مدينة سرت الصحراوية، يمر الراعي قرب أنبوب ينقل الماء عبر الصحراء لا إليها حارما إياها من نبع الحياة، وهو وقطيعه يكادان يقضيان من العطش، فيقرر ثقب الأنبوب، لإنقاذ الأغنام من الموت المحقق، لكنه يتردد كثيراً؛ ربما لأن بطش السلطة وقرب العهد بسطوة المستعمر في ذلك الوقت، لا يزالان حاضرين في ذهنه، خاصة تلك القصص التي كان يتناقلها سكان الصحراء عن راعيين أرادا حمل ملء شبكتيها تبنا فوق جمليهما فوجدا أسلاك اتصال هاتفي كان الإيطاليون قد مدُّوها عبر الصحراء فأخذا منها قدرا قليلا، ليربطا حمليهما، وبمجرد وصولهما كان حبل المشنقة في الانتظار، ودون محاكمة إطلاقاً، وهما من فعل ذلك عن سذاجة وحسن نية كاملين، كان الراعي متردداً لكن كان عليه أن يفعل شيئا لإنقاذ القطيع من العطش الكاسر المميت، وشبح السلطة كان دائما يطارده في يقظته وأحلامه، كما هو واضح من النص، وفي أثناء هذا التردد يعالج: أحمد نصر بشاعرية كبيرة، وباستخدام متميز لتيار الوعي الأفكار والخواطر والصراع بين الإقدام والإحجام، الذي يعتمل في نفس الراعي المسكين، يقول النص:" **انتصب الرجل واقفا بين يقظة الروح وقسوة الحال، وعصرت الآلام قلبه، ففاضت دموعاً ملأت محاجره** (...) **راودته فكرة طارئة تهللت لها أسارير جبهته، ولكن أعوذ بالله من شر الوسواس... أتفكر في هذا؟ القيد الحديد والسجن الكئيب... أربعة جدران ما**

أقسى العذاب" (نصر: 1970: 19)، ويستمر هاجس التفكير في عقاب السلطة الصارم، فيقول التداعي: "**لماذا تفكر في السجن كأنك قادم على جريمة قتل.. فقط ثقب بسيط... ويمكنك أن تتحكم فيه**"(**نفسه**). وحتى عندما أقبل على ذلك وضرب الأنبوب وخرج الماء كان جزعه أشد من فرحه، "**كان القطيع قد صدر وانطلق متلاحق الجماعات عائداً إلى المراح يسوقه نسيم العشي، فلحقه الراعي بوجه يقطر ماء، وتناهت إلى سمعه أصواتٌ كأزيز سيارات قادمة عن بعد، فوثب قلبه، وتلفت خلفه في ذعر**..." (نصر، 1970 :21).

ويبدو التعاطف بين الإنسان والحيوان جلياً على الرغم من الحنق واليأس الذي يصاحب مثل هذه المواقف، ففي البداية، هش الراعي أغنامه بحنق وعصبية، لكن الحال تبدل بعد ذلك: "تلفت جهة القطيع في عبوس حزين وتجول بعينيه في وسطه... جماعات متهالكة على الرمضاء كأشلاء على السفود وأخرى خائرة تلهث(...)، فرمى بالعصا وراء ظهره وانحنى يتحسس رؤوس الأغنام ويمسح على ظهورها، ليخفف ما ألمَّ بها من آثار الضرب، وما اعتراه من إحساس بالندم...، عجماء تحس وتتألم... مثلك، وإن كانت لا تعرف البكاء ولا التوسل.." (نصر: 1970 : 18-19).

ثانياً: العلاقة البيئية بين الإنسان والطبيعة والحيوان:

هذه العلاقة "الماء" هو العنصر الحاضر فيها في كلتا القصتين، لكن يرصد أحمد نصر أيضا منظومة من العلاقات التي تنشأ في الطبيعة بينها وبين مكوناتها من الإنسان والحيوان، فالإنسان رديف الحيوان، وكلاهما يعتمد على الآخر في معاشه، بل في حياته كلها أيضاً، الطبيعتان الحرى والبردى، الحية والصامتة، في الصحراء حالتان لا تُتَجاوَزان إلا بوصول تلك العلاقة إلى أقصى حدود كمالها، هنا عنصران يحاول الكاتب أن يشي بهما: الإنسان، والحيوان في الأدب: (في علاقتهما بالطبيعة والأرض و الماء)، أي: بالبيئة.

القصة القصيرة الأخرى قد أخذت عنوان: "**وكانت ليلة**"، وهي تروي حكاية شاب صغير السن، قروي، يريد أن يذهب إلى الصحراء مثلما يفعل الشباب الكبار والرجال، تستهويه الحكايات التي تُروى من العائدين من هناك، فتتوق نفسه إلى خوض هذه التجربة، "**كم كان يحز في نفسي أن يخرج رجال القرية شبابا وكهولا وربما شيوخا خلف قوافلهم بمجرد أن تنشأ بينهم إشاعة مطر وأبقى أنا.. أنا أبقى مع النسوة والعجزة والكسالى**". (نصر: 1970: 52)

ثم يضيف الراوي الشاب: "**وقتها ما زال ساعدي غضا، ولم تتكاثف أو تسوَد الشعيرات الصفراء تحت أنفي بعد، كنت صبيا غرا...، لكني كنت أتعمد شد وسطي بحزام عريض، وأشمر كميْ قميصي من أعلى المرفقين، وأثبت أسفل السروال عند انبعاج الساقين**".(نصر: 1970: 52)، لكن الحلم بولوج

عالم الصحراء يصطدم بأجوائها، بالعاصفة والمطر والريح التي فاجأتهما عندما سمح له والده بمرافقة أحد الرعاة إلى الصحراء، حاصرتهما عاصفة مطرية قوية، وكادا يتجمدانِ من الصقيع والبرد لولا وجود الجملين الصبورين اللذين أديا دور المتاريس في مواجهة الزوبعة الشديدة، ولولا حكمة الإعرابي المرافق التي قادتهما إلى النجاة من الموت المحقق، ويعض الفتى القروي بنان الندم في عالم لم يألفه من قبل، "**إنني أتوقع مطرا غزيرا، يجب أن نبحث ملجأ**".

و بهدوء وبلا مبالة أجابني:

لا ملجأ إلا الله، تدثر بعباءتك جيدا." (نصر: 1970: 55)، وهنا يندم الغر بعد خوض هذه المغامرة مع ما يجهل: "**أهذا هو البر؟ .. توبة .. لو تنتهي هذه الليلة على خير .. فقط لو تنتهي**: "(نصر: 1970: 60).

ويصف الكاتب طبيعة الصحراء المتقلبة عبر لسان الراوي: "**تلفتُّ يميناً وشمالاً، وطفت بعينين قلقتين في كل الاتجاهات، لكنني لم أعثر على شيء يشد النظر، لا شجرة ... لا صخرة... أرض ممتدة جرداء مر بها صيف محرق وخريف مجدب فلَّم يَنْمُ بها نباتُ العنصل بعد**" (نصر: 1970: 55).

ويلحظ في عموم القصة تجسيدٌ للمصير المشترك في العلاقة الخاصة بين الإنسان والحيوان، فكلاهما يواجهه خطر الموت، وكلاهما تحاصره العاصفة الهوجاء المطيرة، ولابد من أن يستعين الإنسان بحيوانه وقت الشدائد، ولهذه العلاقة طرفان: مستعينٌ وهو الراعي، والفتى، ومستعانٌ به، وهما الجملان، هذه العلاقة بين الإنسان والجمل تكتسي طابعاً خاصاً وربما تعلو على علاقات الإنسان مع حيوانات أخرى كالحصان مثلا، فالجمل هنا يبدو أكثر قربا من الإنسان بكثير؛ فعلاقة الإنسان بالحصان علاقة يشوبها نوع من الترف إذا استثنينا استخدامه في المعارك في السابق.

أما الجمل فقد شهدت صلته بالإنسان العربي أوثق أنواع الترابط عبر الصحراء التي لا يكاد يخلو منها أي بلد عربي، ويشير القرآن الكريم إلى هذا النوع من علاقة التسخير في عدة مواضع منها: ((*و تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم*)) (النحل الآية 7)، ومن الجمال كان الغذاء والكساء وهو الصديق في السفر والحل والترحال، فالجمل رفيق الصحراء وماخرها، وقد عاش معه الليبيون آلاف السنين، "**عدت إلى مكاني على ركبة الجمل**(...)، **وتلفت جهة الأعرابي فرأيته ما زال ملتفا على ركبة جمله مستسلما للماء كالقنفذ.**

(...) **– لم يحدث أن أوي أحد من رحمة الله**"(نصر: 1970: 57). كاد الفتى الغر والأعرابي أن يغرقا، وأن يموتا من البرد و الزمهرير.

لعله من خلال هذا العرض يمكن لهاتين القصتين أن ينقادا للتحليل وفق المنهج البيئي الذي يمتد ليشمل "ذلك التوسع النقدي والمنهجي للدراسات الأدبية، لتضم نصوصا تتعالم مع العالم غير الإنساني وعلاقتنا نحن مع هذا العالم(Kokinas:3).

الخلاصة:

لعل العنصر البيئي – الماء – هو الأكثر ظهورا في القصتين، وكاد فقدانه في القصة الأولى أن يودي للتهلكة بكل من الإنسان والحيوان. أما في القصة الثانية فكثرته هي ما كاد يؤدي إلى الهلاك، ولعله من غير الخافي أن الماء يمثل عنصرا حيويا للحياة. إنه كالدم للكائن الحي، وتزداد أهميته وقيمته وفقا لمفهوم الندرة الاقتصادي.

ففي الصحراء يعني فقدان الماء فقدان الحياة؛ لكن كثرته أيضا تعني فقدانا للحياة: حياة الإنسان والحيوان والبيئة، ولعل بداية نص الماء يشير إلى أيّ مدى كان فقد الماء عادماً للحياة.

ولعله من المفيد التنبيه على أن القصتين – كما هي قصص الستينيات من القرن العشرين– تسيران في خط النسق الزمني الصاعد، وقد سُرِدتا بأسلوب الراوي الكلي العام، كذلك، لعل الواضح أن حضور الصحراء في أدب أحمد نصر من خلال أنموذجي الدراسة، حضور لا يَصِمُهُ التجريد أو الإقليدية المحايدة التي تتخذ الصحراء مجرد مكان للعمل السردي، مثل أعمال منيف، بل يسمه الوصف الشاعري الذي يكشف عن أيديولوجيا سافرة غير مبرقعة تجنح إلى تنبيه الغافلين – كما يبدو من تصور الكاتب – إلى ما وراء الصحراء من البيئة التي يجب أن نلتفت إليها وتشمل: الإنسان، والحيوان، والحياة، والوجود.

المصادر و المراجع

أولا-المصادر

1-أحمد نصر: (2015م)، كشكول خاص، منشورات جامعة مصراتة، مصراتة – ليبيا.

2-أحمد نصر: (1972م)، شبح النهاية، دار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا .

3-أحمد نصر: (1970م)، "وتبعثرت النجوم"، دار الشرق الأوسط للطباعة، الإسكندرية.

ثانيا- المراجع العربية

1-أحمد محمد الشلابي: (2006م)، *القضايا الاجتماعية في الرواية الليبية*، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، طرابلس – ليبيا.

2-كامل عراب(2008م)، *اختلاجات الزمن الساخن*، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، طرابلس – ليبيا.

3- محمد أبو الفضل بدران، *أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية*، المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية. مقالة في الشبكة.

ثالثا- المراجع الأجنبية

1- Habib, M. A. R. (2011), *Literary Criticism from Plato to the Present: Introduction,* Wiley-Blackwell, Chichester, UK.

2-Gollfelty, Cheryll & Fromm, Harold (1996)eds., *The Ecocriticism Reader,* The University of Georgia Press, Athens and London.

3- Carter, David (2006), *Literary Theory*, Cox and Wyman, Reading, UK.

4-Cokinos, Chritopher(1994), *What is Ecocriticism?* Kansas State University, USA.